حول محاضرة د. منذر جابر

«أصاب من الشيعة وجبلهم مقتلاً»

ان ما قام به المجلس الثقافي للبنان الجنوبي في نطاق ما اسماه « صفحات من تاريخ جبل عامل » ، يعتبر بدون شك عملا جليلا ورائعاً ، وذلك في محاولة لالقاء الضوء على شخصية هذا الاقليم وعروبته ودوره في التاريخ الوسيط والحديث والمعاصر ، في وقت يتعرض فيه يومياً للتاكل والاحتراق والتدمير . وحتى لاتتحول المحاضرات او الصفحات العاملية هذه الى خطب سياسية او استعراضية ، عهد بها الى مجموعة من الاساتذة الجامعيين والمختصين ، ليأتي العمل متناسباً مع طموح المجلس وفي مستوى المرحلة المصيرية والخطيرة .

ولن ادخل هنا في تقويم كافة الصفحات التي اوشكت على الانتهاء ، ولكنني اود ان اشير الى نقطة اساسية لا اعتقد انها خفيت على الكثيرين من رواد هذه المحاضرات والمتتبعين لها ، وهي اختلال القاسم المشترك الذي كان يفترض ان يربط هذه الصفحات ببعضها ، وصولا الى تحقيق الهدف الذي سبق ان اشرت اليه . فقلة فقط من السادة المحاضرين التزمت بخطوط الموضوع العام ، بينما استغرق الآخرون بالتفاصيل السردية ، وبعضهم هام على وجهه لا يستقر له قرار ، ومعه المستمعون يتصببون عرقاً او دما على تشريح ما تبقى من هذا الجبل المتهاوي .

وإذا كان لبعض المحاضرات السالفة شفاعة في التطويل او الافتقاد احيانا الى عنصر الوحدة في الموضوع واحيانا الى التحليل العلمي ، فان المحاضرة الخامسة التي القاها الدكتور منذر جابر ، كانت جامعة – بدون اية مبالغة – لمعظم هذه السلبيات نهجاً وسياقا ومادة تاريخية غير متوازنة . وسأحاول التوقف عند بعض الملاحظات على ما احتفظت به الذاكرة من هذه المحاضرة ، التزاما بالحقيقة التاريخية وكشفاً لبعض الاخطاء والتصورات المفتعلة :

١ – ان اول صدمة تواجه المستمع هي غربة العنوان عن المضمون الذي خلا من اية اشارة الى ما سمي بالكيان السياسي لجبل عامل ما قبل ١٩٢٠ .

٢ – جاء في المقدمة عن تاريخ جبل عامل بانه قائم على جملة من الاساطير ومن بينها اسطورة ابي ذر الغفاري ، الثائر الاسلامي الذي نفي الى جبل عامل في عهد الخليفة الراشدي عثمان . انني مع المحاضر هنا ، بان رحلة الغفاري يحيط بها الشك وبحاجة الى اثبات لا زال غير متوفر حتى الآن ، ولكن التناقض الساذج ان يعود المحاضر الى اثبات هذه الحادثة او الأسطورة على حد تعبيره ، فينتهي الى الاعتراف بها والتصريح بان جبل عامل « قد تشيع على يد الصحابي الجليل ابي ذر الغفاري » .

٣ – من الغريب والمحاضر قد عاش في بنت جبيل ، ان يشير الى حادثة عين ابل بانها وقعت في سنة ١٨٦٠ ، انها محفورة في اذهان العامليين تاريخاً وملابسات ونتائج ، واول ما اصابت بنت جبيل نفسها . وفوق ذلك فقد عالجها كاي حدث عادي او فردي – حسب قوله – مما يتنافى والرؤية الماركسية في تفسير التاريخ التي يحاول الأخذ بها . فحادثة كهذه لا يمكن فصلها عن الصراع السياسي والطبقي المتصل بحركة التحرر العربي التي اجتاحت المنطقة في ذلك الوقت . وكان باستطاعة المحاضر ان يطل منها على الوضع اللبناني الراهن ، اي باعطائها البعد السياسي وليس المحلي فقط .

٤ – اتهام الشيعة برغم الفذلكة المصطنعة وكانهم تنابلة التاريخ ، يتغذون من كربلاء ويفطرون على الحزن .. وفي عقولهم هاجس المهدي المنتظر . والحقيقة ان قضية المهدي لا تمثل انحلالا في الفكر الشيعي بقدر ما هي باعث على النضال الدؤوب ضد الانحراف والظلم والطغيان،وذلك بزعامة « المنقذ » او المهدي . وهذا الاخير ليس بالضرورة الامام الغائب ، فهو يعيش في وجدان الشيعة ويجسد مستقبلهم الافضل (اتخاذ الخليفة الفاطمي الاول لقب « المهدي » تعبير عن هذه الرؤية) . كذلك فان قضية المهدي ليست حصرا على الشيعة ، فالامويون بعد سقوطهم كان لديهم منقذهم وهو « السفياني » ، كما ان الاسبان امنوا بحتمية رجوع ملكهم المهزوم امام طارق بن زياد في وادي لكة .

٥ – محاولة التوكؤ على بعض الشعر الزجلي العاملي ، كاحد مصادر المحاضرة . وهذا النوع من الشعر مثل في ذلك الوقت ذروة الانحطاط الفكري وخلا من اي مضمون سياسي او انساني ، باستثناء لاجواء القرية الضيقة التي انطبعت عليه.وشعراء الزجل لم يمثلوا يوما الادب العاملي او الهيئة العاملية ، خلافا للرواد الكبار من شعراء الفصحى الذين كانوا الوجه الحقيقي لنضال العامليين والاداة المعبرة عن همومهم اليومية في القرنين التاسع عشر والعشرين .

واخيرا فليسمح لي الدكتور جابر ، بان اصارحه بان محاضرته اشتطت كثيرا عن الاطار التاريخي لهذه الصفحات العاملية ، وحاولت مضطربة ان تدرس خلفيات التشيع وانعكاساته على حياة العامليين وعلاقاتهم المحلية/السياسية والاجتماعية،ولكنه أخفق كثيراً واصاب من الشيعة وجبلهم مقتلا .

الدكتور حسين مظلوم العاملي

السفير، ٣٠ تموز ١٩٧٩، صفحة ٩